تحديات التخريب

في حياتنا الثقافية

محيي الدين اسماعيل

★ المشهد واسع رحيب يشمل هذه البقعة العريقة التي استولدت الحضارات تلو الحضارات، من شواطئها المطلة على بحر العرب في أقصى الجنوب حتى ثغور الشمال والشمال الشرقي، وامتداداً غربياً حتى أعمدة هرقل المطلة على شواطىء الأطلسي.

★ المشهد واسع رحيب وفرجة الزمن هائلة يصيب المرء منها الدوار.

★ وعلى امتداد هذا المشهد كانت هناك عمليات تولد حضاري بدأت مع نشوء المجتمع العربي المتحضر. ولا بد لهذا التولد الحضاري من مقومات أولية بدونها لن يكون أثر لهذه الحياتية الكبرى. ويمكن اجمال هذه المقومات بضربين من الشروط هما: شروط البيئة المادية وشروط البيئة البشرية.

★ ففي ظل الشروط المادية ينبغي أن تكون الطبيعة عاملاً في عملية التطور الحضاري بحيث لا تكون عائقاً متحدياً أو عنصر افناء دائم للتكون الحضاري، بل عامل توليد واستقرار ودافعاً من دوافع النشاط البشري والمثابرة الإنسانية.

★ وفي ظل الشروط الانسانية تتفاوت مقومات النشاط البشري من أخلاقية واقتصادية واجتماعية وسياسية وما إلى ذلك من مختلف أوجه النشاط الذي يبتدئه الإنسان في هذه العملية الكبرى، عملية التولد الحضاري.

★ في هذا المشهد الواسع الرحيب توافرت شروط البيئتين المادية والانسانية على نحو فذ ضمن استقرار المجتمع وقيمه الكبرى على مدى العصور.

★ على أن موقع هذا المشهد متوسطاً قارات العالم القديم الثلاث بحيث اعتبر منذ البدء نقطة البدء في العالم، قد أضاف إلى قيمة هذه البقعة وحول إليها الأنظار.

★ لاحظوا أن ما يقع على الغرب من هذا المشهد هو الغرب، وما يقع على الشرق منه هو الشرق، اجمع على ذلك كل من كتب في الحضارات منذ القدم.

★ هذا الموقع الذي يؤلف البؤرة الحضارية الأولى في تاريخ الإنسان عرّض إنسان هذا الموقع إلى تحديات جمّة من الداخل والخارج على امتداد الأجيال. وقصة هذه التحديات بكل أشكالها تقص علينا مغامرات الغزاة بجميع صورهم وأشكالهم منذ فجر السلالات حتى اليوم.

★ وبدءاً في حديثنا هذا علينا أن ننص على أننا ينبغي أن

نميّز بين نمطين من الأخطار التي تعرض لها هذا الموقع الحضاري، وطننا العربي.

★ النمط الأول هو نمط الصراع الحضاري، وهو الصراع المشروع الذي ينشب تحت قانون لا فكاك منه بين كل حضارتين متقابلتين، أو حضارات متقابلة.

★ والنمط الثاني هو النمط المتأتي من مخاطر الغزو المخطط والمصّمم والتحديات التي تتعرض لها حضارة ما من الخارج أو الداخل.

★ فالنمط الأول يخضع لناموس طبيعي لا مناص منه يحدث على أثر تقابل بين حضارتين فينشب هذا الصراع المشروع لتأخذ كل من الحضارتين من الأخرى وتعطي لها.. واننا لندعو هذا النمط من التقابل صراعاً على سبيل التجوز، لأن مثل هذا التقابل هو في جوهره تعايش إنساني كأسمى ما يكون التعايش بين الحضارات.

★ ولقد عرفت حضارتنا العربية هذا النمط من التعايش بين كثير من الحضارات التي تقابلت واياها على مدرجة التاريخ، لتتم بها عملية التفاعل الحضاري.

★ أما النمط الثاني فهو النمط الذي نعنيه في بحثنا هذا والذي يؤلف خطر التحديات المعممة الغازية وهو نمط غير قائم على الناموس الطبيعي في تقابل الحضارات الذي ينتهي بالأخذ والعطاء، وإنما هو ضرب من العدوان.

★ هذا النوع من التحديات واجهته أمتنا العربية منذ أن بدأت بإقامة مجتمعها الحضاري الموحد إذ نهضت بحمل رسالة السماء إلى الإنسان.

★ كانت رسالة السماء التي نهضت الأمة العربية بابلاغها إلى العالم هي رسالة العدل والمساواة، وهي الرسالة العظمى التي استجاب لها الضمير العربي ورفضتها القوى الرافضة لخير الإنسان وسعادته على الأرض.

★ وإن عقد المقارنات المبدئية والتاريخية بين قيم العرب قبل الإسلام وبعد الرسالة السمحة لموضوع ممتع غزير، يطلعنا على جوانب من حقيقة هذه الأمة وجوهرها، كما يطلعنا على البواعث التي دفعت ببعض الأمم أن تتحدى هذه الأمة وقيمها وحضارتها وجوهرها الإنساني.

★ فقيم هذه الأمة وتقاليدها الرفيعة التي نجدها في كل الموروث الذي تسلمناه من يد الزمن كان أحد القوى المحركة لهذه الأمة في صدامها مع تحديات الغزاة والخصوم منذ عصور طوال.

★ وما إن أطلّ عصر الاستعمار مع بداية عهود الاستكشاف حتى غدا الغزو الاستعماري من مادي وفكري حرفة تحترفها قوى البورجوازية الطالعة في الغرب آنذاك.

★ ولو رجعنا إلى تاريخ تعرض هذه البقعة من الوطن العربي في جنوب الجزيرة لقوى الاستعمار المحترفة، لعرفنا كم كان التخطيط للغزوتين المادية الفكرية مهماً في دورة التاريخ هذه.

★ ففي كانون الأول من عام ١٨٢٠ م قدم الاسطول البريطاني وقصف مرفأ مخا ثم فرض الاستعمار البريطاني في عام ١٨٢١ م معاهدة منحت الرعايا البريطانيين الذين كانوا يترددون على الموانىء في الجنوب نوعاً من الامتيازات في كل المرافىء من هذه المنطقة، واحتلت بعد ذلك القوات التي جردتها شركة الهند الشرقية عام ١٨٣٤ م جزيرة سقطرة وحولتها إلى محمية بريطانية، ثم استولى البريطانيون بعد ذلك في عام ١٨٣٩ م، كما يعلم الجميع، على عدن بعد عمليات عسكرية رهيبة نكلوا فيها بقوى الشعب تنكيلاً سيظل وصمة عار إلى الأبد.

★ كانت تلك هي البداية، ثم مضى الاستعمار البريطاني ينفذ بغزوه خطوة بعد خطوة حتى بلغ شرق الجزيرة العربية من شواطىء الخليج العربي، ثم استكمل بعد الحرب العالمية الأولى.

★ ولئن استطاعت قوى الشعب العربي أن تتعرف على التحديات المادية وتشخص قواها لتشتبك معها في سلسلة طويلة من الصراع انتهت في كثير من المواقع إلى زلزلة الأرض تحت أقدام المستعمرين.

★ إلا أن الغزوة الفكرية أصبحت هي الستار الذي تتستر وراءه قوى الاستعمار وقوى التحديات بشكليها الداخلي والخارجي.

★ ومن أبرز أشكال هذه الغزوة الفكرية هي حركة الاستشراق التي بدأت بحملات التشكيك في التاريخ العربي ونقائه، فصدرت أبحاث المستشرقين الطاعنين من أمثال نولدكه ورينان وآسين بلاسيوس وزويمر وأمثالهم من أولئك الذين زعموا أن أبحاثهم إنما تصدر عن مواقف علمية تقودهم إلى وسائل البحث والمنهج العلمي.

★ وإننا في الحقيقة نرى أن التراث العربي هو جزء من التراث الإنساني وهو ملك الانسانية كلها، ومن حق أي باحث أن يتخذ إزاءه الموقف الذي يختاره بصرف النظر عن بواعثه ومعتقده وأهدافه ولكننا في الوقت نفسه نملك من الحق ما ندافع به عن تراثنا باعتباره هذا الجزء الهام من تراث الإنسانية ذاتها.

★ لقد حاولت حركة الاستشراق على مدى أكثر من قرن أن تقوم بوظيفة المبرهن على أن الحياة العقلية العربية لا تمثل جزءاً من الحياة العقلية الرفيعة للإنسانية، وقد قامت هذه الحركة بجهودها هذه في غياب المنهجية العلمية في مناقشة التراث العربي إلى درجة أن وصمت حركة الاستشراق بمجملها بالتعصب والتآمر المعمم على الموروث العربي. والحقيقة أن هذه الوصمة كان مردّها دوماً غياب هذه المنهجية العلمية. ومن التعميمات الخاطئة التي أطلقها المستشرقون، قول رينان مثلاً في كتابه عن الفيلسوف العربي الكبير (ابن رشد): « وليس العرق السامي - وهو « يعني العرب في هذا السياق - هو ما ينبغي أن نطالبه بدروس في الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا ينتج هذا العرق الذي استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى نزعات القوة، أقل ما يكون من بواكير خاصة في حقل الفلسفة ». مثل هذا التعميم وغيره من الآراء التي ترى أن العقلية العربية عاجزة عن التحليل والتركيب والتفكير في دقائق وتفعيلات حركة

الوجود.. هذه الآراء والتعميمات هي التي سادت الأجواء الثقافية في الغرب عموماً ورأت أن الذهن العربي عدو لحركة العقلية مع تجاهل كامل بأن الحضارة الإنسانية قد انتقلت إلى العصور الحديثة عبر العرب والمفكرين العرب.

★ ومن معطيات هذه الاستراتيجية الثقافية التخريبية صدرت كل حركات التخريب الأخرى داخل الوطن العربي وخارجه والتي استهدفت حياتنا العقلية المعاصرة والاشباك مع قوى الثورات الفكرية في شتى بقاع الوطن العربي. فقد طرح استراتيجيو التخريب الثقافي رأياً شاع في صفوف الشريحة الثقافية للقطاع الامبريالي - الاقطاعي ثم بعد ذلك للقطاع الامبريالي - الاقطاعي - البرجوازي. ويكفي هنا أن نشير إلى الذين أرّخوا للفكر الإنساني من أمثال كوليه وفولر وفندلباند قد اعتذروا عن عدم تعرضهم للعرب في حياتهم العقلية منطلقين من الرأي الذي أشاعوه وهو أن العرب في أوج ازدهار حضارتهم لم ينقلوا للعالم سوى مكتسبات الفكر الاغريقي والهيليني.

★ ولقد ناقش في الآونة الأخيرة بعض المثقفين العرب هذا الرأي وذهب البعض منهم إلى أننا في ردنا على هذا الرأي الذي أشاعته حركة الاستشراق علينا أن نبدأ بعملية (عودة) وعملية (استعادة) لفكرنا العربي أي أن نضبطه ونحققه ونوثقه تاريخياً.. وأصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أننا إذا ما أردنا الكشف عن القصور الذاتي في هذا النمط الذاتي في هذا النمط من المركزية التي تروج لها بعض المدارس الأوربية فإننا لا شك سنصطدم بمشكلة جهل هؤلاء بـ (التشكيلية الاقتصادية الاجتماعية) أو رفضهم لها.

★ وفي الحقيقة فإن بعض مثقفينا الذين يذهبون هذا المذهب يتجاهلون الحقيقة الأهم، وهي أن هذه المدارس التي روجت لهذا الضرب من المركزية واعتبار أوربا البؤرة والمعيار في قياس الحضارات هي مدارس الاستشراق التي كانت دوماً طليعة الغزو المادي الاستعماري. فالجهل بالتشكيلة الاقتصادية أو الاجتماعية لا يكون حجة للجهل بقيمة الفكر الإنساني ودور أنماطه الشقيقة في دفع حركة التقدم الحضاري. والجهل بهذه التشكيلة لا يكون حجة لاعتبار الفكر العربي ملحقاً بالفكر اليوناني الهليني. والجهل بهذه التشكيلة لا يكون حجة على الاطلاق لنسخ الفكر العربي واعتباره فكراً اغريقياً هلينياً مكتوباً باللغة العربية - على حد قول رينان - الذي كان من أول طلائع المشككين بقيمة الفكر العربي ومن أوائل من مهدوا للغزوة الفكرية الحضارية أي الامبريالية الاقطاعية - البورجوازية الموجهة ضد الوطن العربي وتراثه وكل المنتمين إلى قوى هذه الغزوة من الداخل والخارج.

★ والذين ناقشوا هذه الأطروحة منذ رينان حتى اليوم القائلة بانتماء الفكر العربي انتماء إلحاق لا انتماء إبداع إلى الفكر الإغريقي الهليني.. الذين ناقشوا هذه الأطروحة من مثقفينا قد نسوا أن هناك تناقضاً يقع فيه فرسان هذه الغزوة.. هذا التناقض يقع مباشرة في أن اعتبار الفكر العربي جزءاً من هذا الفكر الإغريقي الهليني هو بنظر المدارس الاستشراقية والاستعرابية تمجيداً في أحد جوانبه طبقاً للمنهجية والتقييمات التي تأخذ بها هذه المدارس.

★ ولكننا حتى في هذه الحال، أي في حالة اعتبار الفكر العربي جزءاً من الفكر الإغريقي الهليني بنظر معظم مدارس الاستشراق، سنظل من خلال المنهجية العلمية والتقييم الموضوعي لهذا الفكر نرفض أن ننظر إلى تراثنا عبر تلك المناهج والتقييمات. وإن نزعة المعاصرة الزائفة التي يحاول فرسان الغزوة وأنصارهم أن يسرّبوها إلى أذهاننا بهذه الحجة أو تلك أو تحت أضواء الانبهار المعاصر،... نقول إن نزعة المعاصرة الزائفة هذه نرى أنها نوع من الركوع تحت وطأة مركبات النقص، وانها تسم من يأخذ بها إلى الجهل بحقيقة تفاعل الحضارات والتمثل الحضاري.

★ وبعد أن أخفقت مدارس الاستشراق والاستعراب هذه في أن تحقق ما سبق أن كانت تمهد له من غزواتها المعممة ظهرت مدارس التخريب الثقافي من الداخل التي أخذت تفلسف تجزئة الوطن العربي وتجزئة الأمة العربية وبالتالي تفلسف تجزئة الثقافة العربية والفكر العربي.

★ إن هؤلاء هم غرباء متغربون أشقياء في أنفسهم بعيدون عن رؤية ما يمكن أن يتفجر عنه التاريخ من لحظات كشف هائلة يفضح محدودية الرؤية القاصرة الخادعة.. إن هؤلاء الذين يؤلفون طوابير التحديات في قطاع الامبريالية - الاقطاعية - البورجوازية المتحالفة بالتالي مع قوى الصهيونية ودعاتها من الداخل يحاولون زوراً وقهراً أن ينسخوا ويزوروا، أن يفسروا ويعللوا بهرطقات جديدة التغيرات الكبرى التي يصوغ حركة الحضارة والتاريخ. إنهم يرون - أو شاءوا ان يروا - ان وحدة الأمم التي لا بد أن تسقط مشاريع الربح الآني في مضاربات المواقع هي فلسفات مرفوضة، وهي فلسفات مرفوضة لأنها فلسفات باهظة الثمن.

★ وأخيراً فالحجة التي يحتّج بها أصحاب هذه الهرطقات التي تؤلف الفصل الجديد في التحديات الأخيرة هو التباين النوعي بين الجزء والكل.. التباين بين الوحدة الاقليمية والوحدة القومية.. ولكن هؤلاء حتى وإن صحّت لهم فرضيتهم، وهي لم تصّح قط، تجاهلوا البديهية القائلة بأن عدم بلوغ الهدف لا يلغي الهدف.. وإن التركيبة الاقليمية لا تلغي بل تكمّل التركيبة القومية وهي تقوّي الحجّة التاريخية لهذه التركيبة ولا تضعفها.

★ من هذا البعد ينبغي أن ينطلق أديبنا العربي المعاصر في صراعه مع كل تحالفات التخريب الثقافي، من أجل أن يجتاز محنة الظروف المعقدة، المركبة التي تواجهه في عملية الخلق والابداع، وفي ذلك وحده الخلاص.

محي الدين اسماعيل
بغداد